ثوب الزفاف

بقلم : زهير طه البيومي

كانت امينه قد جاوزت الثلاثين من عمرها بعدة شهور ، ورغم ذلك فقد ظل ثوب الزفاف اهم ما يشغل بالها .. فكانت تقتطع كل شهر جنيها من راتبها وتدخره لشراء ثوب الزفاف الذى سترتديه حين تجلس الى جوار (سمعه) .. تماما كما كانت تفعل طوال خمسة عشر عاما قضتها فى خدمتنا .. وكذلك قضتها فى انتظار حبيبها(سمعه) حتى يعود من القاهرة بعد ان يكون قد وفق الى عمل هناك يساعده على حمل اعباء بيت الزوجية الذى سيجمعهما، وطال انتظارها ، ولكنها كانت تقول لنفسها دائما .. انها لابد ستزف اليه يوما ما ، مهما كان هذا اليوم بعيدا .

واخيرا وصل خطاب باسم امينه ذيل بامضاء تعرفه جيدا رغم انها لا تعرف القراءة .. تعرفه بالشكل .. بطريقة رسم حروفه التى تبدوحلوة فى ناظريها رغم ما يتصف به الخط من رداءة ، انه خط الاسطى (سمعه) ، ولكن فرحتها ودهشتها جعلتاها لاتصدق فاخذت تمر على افراد البيت فردا فردا وتطلب الى كل واحد منهم ان يقراه عليها كلمة .. كلمة ، ولكنها لم تصدق ما ورد فى الخطاب .. لم تصدق ان الاسطى (سمعه) قد وفق اخيرا فى الحصول على وظيفة تضمن لهما العيش الكريم ولم تصدق انه سيأتى فى نهاية الاسبوع كى تزف اليه ، وتمادت فى عدم تصديقها هذا حتى انها اخذت الخطاب الى اخته الصغيرة التى كانت لا تزال فى المرحلة الابتدائية والتى كانت لا تكاد تتقن القراءة ، ولعل ذاك قد جعل امينه تصدق ما ورد فى الخطاب .

شمل البيت سعادة غامرة ، وخاصة امى التى كانت تعلم ما كان يدور فى ذهن امينة ، تعلم انها كانت تخشى ان يفوتها قطار الزواج بعد ان وصل بها العمر الى هذه السن ، وبعد أن كادت تفقد الامل فى الزواج من (سمعه) ؛ ولكن طول العمر يبلغ الامل .. هكذا كانت تقول امى دائما لامينة التى صبرت ونالت، ويعلم الله انها قد صبرت كثيرا.

كان على امينة ان تستعد لشراء ثوب الزفاف بعد ان اخبرها (سمعه) فى خطابه انه سيحضر بعد ثلاثة ايام ، وبدات تستعد بعد ان حصلت على راتبها الشهرى بالاضافة الى بضعة جنيهات اهدتها امى اياها كى تساعدها على بدء حياتها الجديدة .

اخذت امينة ترتدى ثوبها الذى كانت تدخره لاوقات الخروج ثم اطلت من

النافذة وجدت ان المطر لا يزال ينهمر بغزارة فارتدت المعطف القديم الذى اهدتها امى اياه فى الشتاء الماضي ، والذى بدا واسعا عليها اذ كانت نحيلة القوام ، وهبطت السلم حاملة معها كل ما ادخرت من نقود ، وسارت الى خارج المنزل وهى تحدث نفسها وتناجى خيال حبيبها .. ساخصص الجزء الاكبر من نقودى لشراء الثوب الذى سأرتديه حين اجلس الى جوارك .. والذى سأرتديه حين نخرج معا الى الحدائق العامة فى الاعياد وفى عطلتنا الاسبوعية كان هذا كل ما يشغل بالها طوال سيرها فى الطريق الى محل الثياب ، وكان لا يقطع عليها هذه الخواطر الجميلة الا مقابلتها لاحدى الصديقات ممن سبقنها الى جنة رضوان وتبادرها باخراج الخطاب الذى ارسله (سمعه) والذى ضمته هو وحافظة نقودها الى صدرها ، ثم تسألها ان تقرأ ما فيه، وتعود تسألها فى غبطه سؤالا ليست فى حاجة الى جواب عليه : « خلاص حانتجوز .. مش كده » .. فترد عليها صديقتها بالكلمة التى يحمر لها جبينها، تماما كابنة السابعة عشرة ولكن امينة لا تلبث ان تسمع هذه الكلمة حتى تستأذنها بعد ان تخبرها انها ذاهبة لشراء ثوب الزفاف..وانها قد خصصت الجزء الاكبر مما ادخرته من نقود لشراء ثوب الزفاف .

ظلت امينة هكذا تطوف شوارع المدينة .. تبحث بين الناس عن وجوه تعرفها كى تعيد قصتها عليهم .. ،حتى انها تخطىء فتعيد قصتها على اناس سمعوها منها منذ قليل ، وبقيت على هذه الحال حتى اعياها المسير فجلست على احد المقاعد المصفوفة على شاطىء النيل ، واخذت تتأمل صفحة الماء الصافية التى تحولت الى اطار يضم صورتها وهى جالسة الى جوار (سمعه) فى ثوب الزفاف الجميل ، وتروح تتخيل (سمعه) وهو يتأمل الثوب الثمين فى دهشة .. وتفكر فى (سمعه) وحبه الذى اكتسب طبيعة حلوة ، حبه الذى لم تغيره الايام والاعوام وانما زادته قوة ، كل ذلك جعلها تقول انه كان من الممكن ان تنتظر سنين وسنين ، وان تصبر وان تكبر مع الزمن ويكبر حبها « لسمعه) ، وتكبر معه قيمة ثوب الزفاف .

ولكن امينة تنبهت ان الوقت قد ازف بعد ان رات الشمس وقد آذنت بالغروب فنهضت من مكانها على الفور وقطعت الشارع الى الرصيف الآخر فى سرعة ، وظلت تسير حتى وصلت الى شارع السكة الجديدة ، واخذت تتأمل الاثواب الجاهزة فى « الفترينه » وتستفسر عن اسعارها ، حتى وصلت الى محل اعجبتها اسعاره ، فدلفت الى الداخل وهى تلم اطراف معطفها ذى الاكمام الواسعة ، واشترت بعض الملابس الداخلية ، ثم اخذت تتجول بين اقسام المحل المختلفة حتى قادتها قدماها الى قسم لوازم العروس ، فاخذت تجيل نظرها بين الثياب المختلفة فى غاية الاطمئنان ، فقد خصصت لثوب الزفاف وحده عشرة جنيهات ، واخذت تمعن النظر فى كل ثوب على حدة بينما كانت تنتقل فى جنبات القسم فى سرور بالغ تتبعها عن كثب الفتاة المشرفة على القسم التى كانت فى الثامنة عشرة تقريبا ، والتى كانت تلاحق امينة فى كل مكان تنتقل اليه وتشيعها بنظرات وقحة كأنما كانت

تستكثر عليهـــا أن تدخـــل الى هذا المحل الذى لا يدخله غير علية الناس ، ولكن امينة تغلبت على الضيق الذى حل بها من نظرات الفتاة وقالت :

ـــ أريد ثوبا فى حـــدود عشـــرة جنيهات .

وتناولت العاملة بشكل آلى ثوبين : احدهما ابيض مطرز فوق الصـــدر والياقه ، والثانى احمر ، وقالت :

ـــ يمكنك ان تختارى واحدا .

وغضبت امينة اذ انها لم تكن تتوقع ان يساوى احـــد هذين الثوبين جملة ماتتقاضاه عن كدها طوال اربعة اشهر كاملة ، انها لم تدفع من قبل مثل هـــذا المبلغ ثمنا لثوب واحد ، ولكنها ستدفع اذا كان الثوب الذى يساوى هذا المبلغ سيرضي شـــعور الخيلاء الكامن فى نفسها ، انها تريد ثوبا لم يوجـــد من قبل .. ثوبا جميلا يبهر « ســـمعه » ويجعله يفغر فاه من الدهشة .. تريد ثوبا يجعلها اجمل من تلك الحوريات التى كانت تسمع عنها فى « الحواديت» التى كانت تقصها عليها امهـــا وهى صغيرة ، كان ذلك كل ما يهمها فاتجهت بقولها للبائعة :

ـــ لا ... اريد ثوبا مخصوصا ..

فاجابت البائعة فى تهكم ظاهر :

ـــ تحبى « الموديل » الفرنسي مثلا ؟ هناك على الرف الكبير ..

اخذت امينة تجيل نظـــرها بين الاثواب المختلفة الالوان ، بينما انشغلت عنها البائعة بالعملاء الاخرين بعد ان ايقنت تماما ان امينة من النسوة اللائى يعشقن استعراض البضائع والمساومة فى اثمانها ، ثم الانصراف .. هكـــذا اخذت البائعة تظن بامينة بينما كانت امينة تدير نظرها بين الاثواب المختلفة وتتخيل نفسها فى كل واحد منها على حدة ، حتى علق نظـــرها بثوب كتب عليه.. « الثمن خمسة وثلاثون جنيها»، اخـــذت تحملق فيه ذاهلة وهى تهمس بينها وبين نفسها « العين بصيرة .. واليد قصيرة » ، ولكنها سرعان ماطالت يدها حتى لامست الثوب ثم ارتدت الى مكانها فى سرعة كأنما قد اصابها مس كهربى،ولكنها سرعان ما تناست الشعور بالجرم الذى خلفه ملمس هذا الثوب فى اطراف اصابعها ، واخذت تتخيل نفسها فى هذا الثوب الرائع جالســـة الى جوار (سمعه) ، تشيعها نظرات الحسد من الفتيات والنســـوة ، بينما تتبعها نظرات الرجال الجائعة محلقة فى ذراعيها وصدرها الناصع البياض الذى يكشف عنه هذا الثوب ولكنهـــا تعود فتعدل عن التفكير فى هذا الثوب حين تلوح لها صورة (سمعه) وقـــد تجهم وجهه غضبا وغـــيرة عليها من نظرات الرجال وخاصة انه رجل من الذين لايحبون ان تتبرج نســـاؤهم ، ولكنها تعود فتتهم نفسها بتلمس الاعذار لانها لا تستطيع ان تدفع ثمن الثوب ، وان هذا الثوب ليس به ما يعيب ،وتمتد يدها الى الثوب مرة اخرى ، وتتناوله فى تؤدة كأنها تتأمله ، ثم تضـــعه فى حقيبتها التى احضرتها لكى تحمـــل ما تشتريه من حاجيات ، بينما تستمر فى استعراض الاثواب كأنها لاتزال حائرة فى انتقاء الثوب الذى تريد ، بينمـــا تزداد دقات قلبها وترتفع حتى تكـــاد ان تصل الى آذان الموجودين فتأخـــذ الخواطر فى التدافع الى راســـها ..

« ماذا يحدث لو اكتشفت البائعة انها سرقت الثوب وسلمتها الى الشرطة » اخذت تتخيل نفسها فى (الزنزانة) الى جوار (نظله) بائعة المخدرات وغيرها من المجرمين واللصوص وبائعات الهوى ، وتتصور صديقاتها وقد تجاهلنها ، و (سمعه) وقد تخلى عنها وهجرها ، ومخدومها وافراد اسرتها وقد تخلوا عنها ايضا ، وهكذا بدت ابواب الحياة وقد اوصدت دونها تماما، حتى « سمعه » الذى انتظرته طويلا ، والذى مافكرت فى سرقة الثوب الا لتبدو فى عينيه اجمل النساء ، تخلى عنها ايضا ، وتتباعد المسافة بينها وبينه كلما تمادت فى تفكيرها وخواطرها الشريرة ، وتلوح لها صورة المحاكمة ، وصورة الحاجب وهو يصيح بصوته الذى تهتز له اركان القاعة « محكمة » ثم ينادى عليها ليس باسمها مجردا ، وانما مسبوقا بكلمة المتهمه ، ولاحت لها صورة القاضي وهو يعلن الحكم عليها بالسجن ، والحارس وهو يسوقها امامه موثوقة اليدين بينما يشيعها « سمعه » ككل الناس بنظرات الاحتقار والسخرية .

كل هذه صور اهتز لها كيانها ، وجعلها تتلفت يمنة ويسرة . وتحاول أن تخرج الثوب من الحقيبة كى تعيده الى مكانه ، ولكن العاملة الصغيرة عادت لترقبها فى قلق وكأنما قد احست ان فى الامر شيئا ، فاتجهت نحوها فى سرعة تستفسرها عما انتهت اليه من رأى ، فاشارت امينه الى رف بعيد عليه ثوب ابيض تواضع ، ارتسمت عليه صورة « سمعه » وهو يبتسم لها وقالت :

— اريد هذا الثوب .

ولكن العاملة اشارت الى زميلة لها وقالت لامينه :

— هذه هى العامله المختصة بهذا القسم ، حيث ثوبك المفضل . وهرعت امينه على الفور نحو العاملة الاخرى ، واخذت تساومها على ذلك الثوب البسيط ، ورغم أن ثمنه كان معتدلا الا انها كانت تعرف انه لا يمكن ان تشتريه، اذ انها لاتستطيع أن تفتح الحقيبة لتخرج النقود حتى لاينكشف امرها ، وتسقط فى نظر « سمعه » الذى طالما انتظرها وارادها نظيفة طاهرة الاذيال، وبعد ان ادركت انها تمادت كثيرا فى مساومة العاملة شكرتها وانسحبت خارجة ، ولكن العامله لحقت بها حاملة اليها الحقيبة التى نسيتها او تناستها لتتخلص من ذلك المأزق ، ولكن امينه التى احست وكأن العاملة جاءت لتلصق بها جريمة ، التفتت نحو العاملة وقالت بينما كانت الكلمات تتعثر على لسانها

— شكرا ... ليست حقيبتى ... لعل سيدة اخرى قد نسيتها .

وانصرفت امينه الى خارج المحل ، وعند الباب وقفت لتتنفس الصعداء ، وكأنما قد تخلصت من حبل كاد يخنقها، ونظرت الى ثوبها البالى فى حسرة ، ثم سارت مسرعة فى طريقها شاردة العينين ، تنظر الى الغد القريب فى امل وتتخيل نفسها وقد زفت الى « سمعه » فى اجمل اثوابها .